التأثير البلاغي في سورة يوسف عليه السلام

"دراسة من وجهة نظر دلالية"

إعداد:

الدكتور/ نسيد أبوبكر مُحَمَّد

قسم اللغة العربية جامعة بايرو كنو – نيجيريا

malamnasidi@yahoo.com
nasidiabubakarmuhammad@gmail.com

الملخص:

تُعَدُّ سورة يوسف عليه السلام من أعظم سور القرآن الكريم من حيث البناء القصصي والفني، فهي السورة الوحيدة التي خصصت بكاملها لعرض قصة نبي واحد، حيث تتجلى فيها مظاهر الإعجاز البلاغي والدلالي بأبهى صورها. وتهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن التأثير البلاغي في السورة من وجهة نظر دلالية، من خلال تتبّع الأساليب التعبيرية، والتحولات الدلالية، والتراكيب البلاغية التي أسهمت في التأثير على المتلقي قديماً وحديثاً.وقد ركّز البحث على أبرز المحاور: المستويات الصوتية، والتركيبية، والدلالية، والتصويرية، والحوارية في السورة، مبيّناً كيف تُسهم هذه العناصر في إبراز الجوانب البلاغية وتوجيه الدلالة لتحقيق غاية التأثير القرآني. وخلصت الدراسة إلى أن التأثير البلاغي في السورة يقوم على التكثيف الدلالي، وتماسك البناء القصصي، وعمق الإيحاء التصويري، وروعة الانتقال بين المشاهد، مما يجعل السورة نموذجاً فنياً فريداً في البلاغة القرآنية.

بيم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل كتابه العزيز بلسان عربي مبين، فجعل بلاغته حجة، وبيانه معجزة، ودلالته هداية ورحمة، وصلى الله على سيدنا محمد أفصح العرب لسانًا، وأبلغهم بيانًا، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

إنّ المتأمل في الخطاب القرآني يجد أنه ليس مجرد نص ديني يُتلى للعبادة، وإنما هو كذلك بناء لغوي فريد، قائم على أرقى أساليب البيان العربي، متسمٌ بالإعجاز البلاغي الذي عجزت عنه فحول العرب، ووقفوا أمامه مبهورين خاشعين. ومن بين السور القرآنية التي تكشف عن هذا البعد الفني الجمالي والدلالي، تبرز سورة يوسف عليه السلام، التي خصصت بكاملها لعرض قصة نبي واحد من بدايتها حتى نهايتها، فكانت نموذجًا للقصة القرآنية المتكاملة.

وقد امتازت السورة بجملة من الخصائص التي جعلتها مضرب المثل في البلاغة القرآنية: وحدة الموضوع وتماسك البناء، وروعة التصوير الفني للحوادث والمشاهد، وتنوع الأساليب البلاغية من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز، والدقة الدلالية في اختيار الألفاظ والتراكيب، وقوة الحوار وتأثيره النفسي.

وقد وصفها القرآن بأنها "أحسن القصص" [يوسف: ٣]، وهذا الوصف القرآني بذاته يعد دليلاً على عظمة ما تضمنته من بلاغة ودلالة وتأثير. فالسورة ليست مجرد سرد تاريخي للأحداث، بل هي بناء بلاغي متكامل يوجه المعنى ويؤثر في السامع، قديمًا وحديثًا، بلغة تجمع بين الإيجاز والإطناب، وبين البساطة والعمق، وبين الجمال الفني والغاية التربوية.

وتبرز أهمية دراسة التأثير البلاغي في سورة يوسف من أنها تسهم في فهم سرّ إعجاز القرآن من خلال نص قصصي كامل، وتربط بين البلاغة العربية وعلوم التفسير والدلالة، وتبرز كيف يوظف القرآن الأدوات البلاغية لتحقيق غاياته العقدية والتربوية، وتكشف عن سرّ الخلود الفني للسورة، وقدرتها على التأثير في المتلقي في كل زمان ومكان.

ولهذا يسعى المقال إلى الكشف عن الأساليب البلاغية المتنوعة في سورة يوسف، وتحليل هذه الأساليب من زاوية دلالية تكشف عمق تأثيرها، ثم بيان دورها في تحقيق أهداف القصة القرآنية، العقدية والتربوية والفنية، وإثراء الدراسات القرآنية المعاصرة ببحث تطبيقي يجمع بين البلاغة والدلالة.

المستوى الصوتي في السورة

يُعَدُّ الجانب الصوتي من أبرز ملامح البلاغة القرآنية، إذ لا يقف عند حدود الجرس الموسيقي، بل يتجاوزها ليؤدي دورًا دلاليًا نفسيًا وفنيًا متكاملاً. وقد أدرك العرب منذ الجاهلية أثر الأصوات في إثارة الانفعالات، فجاء القرآن ليبلغ الذروة في هذا الباب. وسورة يوسف مثال واضح لهذا التوظيف الصوتي؛ إذ تتآزر الفواصل القرآنية، والإيقاع، والتكرار، والتنغيم، لتوليد دلالاتٍ عميقةٍ تتناسب مع القصة وأحداثها.

أولاً: الفواصل القرآنية وأثرها في السورة

الفواصل هي أواخر الآيات، وهي تشكل الإيقاع القرآني العام، وتؤدي وظيفة جمالية ودلالية. وفي سورة يوسف تتنوع الفواصل بين المقاطع القصيرة الموجزة، والمطوّلة ذات الرنين.

١. الفواصل ذات الإيقاع الهادئ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، حيث تنتهي الآية بنغمة رخوة (المحسنين) تنسجم مع موضوعها: الصبر والتقوى. وهذا الانسجام الصوتي يعكس الراحة النفسية بعد طول ابتلاء. وقد علّق ابن عاشور قائلاً: "إن انسجام الفاصلة مع سياق الصبر من دقائق إعجاز النظم القرآني"[١]

٢. الفواصل ذات الجرس القوي، ومنها قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١]، وقد انتهت الآية بحرف النون الساكن المشدد (خاطئين)، وهو صوت انفجاري يثير الإحساس بالاعتراف والتسليم. فالفاصلة هنا تُعطي نغمة حادة تناسب الموقف الدرامي (اعتراف الإخوة بخطئهم)[٢].

[١] -ابن عاشور، محمد الطاهر: التحرير والتنوير. تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م، ج١٢، ص ٢٣٣.

[٢]- ابن عاشور، محمد الطاهر: التحرير والتنوير، المرجع السابق نفس الصفحة.

ثانيًا: التكرار الصوتي ووظيفته الدلالية

التكرار من أبرز الظواهر الصوتية التي تحمل طاقة بلاغية في سورة يوسف. وهو ليس حشوًا لفظيًا، بل آلية لإبراز المعنى أو تكثيف الانفعال، ويقصد به" ذكر كلمة أو لفظ أكثر من مرة في سياق واحد لنكتةٍ ما، كالتوكيد، أو لزيادة التنبيه أو للتهويل أو للتعظيم"[٣].

١. تكرار النداء "يا أبت" قال الى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ [يوسف: ٤]. يتكرر النداء "يا أبت" في السورة (آيتان ٤ و٦). هذا التكرار الصوتي يخلق إيقاعًا عاطفيًا شجيًا، ويؤكد علاقة الحنان بين يوسف وأبيه. ومن الناحية الدلالية، يكشف عن شخصية يوسف الطفولية المليئة بالوداعة والطاعة.

٢. تكرار لفظ "قال" ورد فعل "قال" في سورة يوسف أكثر من ٧٠ مرة، حتى أصبحت السورة من أكثر السور استعمالًا للحوار. تكرار "قال" يشكل إيقاعًا حواريًا متلاحقًا، يعكس طبيعة القصة القائمة على الصراع والكشف التدريجي للأحداث.

٣. تكرار الألفاظ الدالة على الابتلاء، مثل: "كيد"، "مكر"، "صبر"، "سجن". ويتكرر كل منها في مواضع مختلفة، ويؤدي التكرار إلى تعزيز الشعور بثقل البلاء وطول الابتلاء، مما يزيد المتلقي ارتباطًا بالقصة.

ثالثًا: الإيجاز الصوتي

من أبرز الظواهر الصوتية في السورة الإيجاز، حيث تختصر العبارات في كلمات قليلة تحمل إيقاعًا قويًا ومعنى مكثفًا، مثل: "فصبر جميل" في قوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨]، فهذه العبارة القصيرة (مكونة من كلمتين فقط) تختصر موقفًا نفسيًا معقدًا: حزن يعقوب، وكبْت مشاعره، وتسليم أمره لله. والإيجاز الصوتي هنا جعل العبارة أشبه بشعار يتردد، له جرس موسيقي ثابت. ويقول سيد قطب: "إنها كلمة قصيرة، ولكنها تملأ القلب إيمانًا وثقة"[٤].

[٣]- المدني، علي بن نظام الدين بن معصوم .أنوار الربيع في أنواع البديع .تحقيق شاكر هادي شكري، مطبعة النعمان، النجف الأشرف،1968 م ص: ٣٤-٣٥.

[٤]- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، الطبعة الجديدة،١٩٦٨م، ج٤، ص: ١٩٧٩.

وكذلك مثل: "رب السجن أحب إلي" عند قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]، فهذه جملة قصيرة واضحة الإيقاع، تحمل حروفًا ذات جرس قوي (السجن/يدعونني)، تعكس الحزم في موقف يوسف.

رابعًا: التنغيم الصوتي

التنغيم أو النغمة الصوتية للنص القرآني تعكس المشاعر والانفعالات. وسورة يوسف مليئة بهذه الظاهرة، مثل: النغمة الحزينة في قوله عتالى ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤]، فحروف الرخوة (الياء، النون، الميم) مع المدود الطويلة تولّد نغمة حزينة تتناسب مع موقف فقد يعقوب لابنه. ثم النغمة الانفعالية التي في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ٦٤]، وتتابع الأصوات القوية (القاف، الكاف، الهمزة) يولّد انفعالًا صوتيًا يعكس غضب يعقوب وعدم ثقته بهم.

خامسًا: التوازن الصوتي بين المقاطع

إن سورة يوسف تُظهر تناسقًا بين المقاطع الصوتية الطويلة والقصيرة، فالمقاطع الطويلة تتمثل في مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ [يوسف: ٣٧]، بينما المقاطع القصيرة تكون في مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢]، وهذا التوازن يمنع الملل ويجعل النص في حركة موسيقية متجددة، تعكس تنقلات القصة من الشدة إلى الفرج، ومن الابتلاء إلى النصر.

هذا فإن المستوى الصوتي في سورة يوسف ليس مجرد زخرف لفظي، بل هو عنصر وظيفي يساهم في إبراز المعاني من خلال التكرار والإيجاز والتنغيم، وتحقيق الانسجام بين جرس الألفاظ والمعاني النفسية (حزن، فرح، صراع)، وإحداث التأثير: إذ يلامس إيقاع النص أذن المتلقي وقلبه، فيضاعف الاستجابة النفسية والوجدانية.

وبهذا يتضح أن الصوت في سورة يوسف جزء من الدلالة، يوجه المعنى ويعمق التأثير، وهو ما يجعلها مثالًا رائعًا على التكامل بين البلاغة والدلالة في النص القرآني.

المستوى التركيبي في السورة

يُعَدّ التركيب أحد أهم مجالات البلاغة القرآنية، إذ يقوم على النظم الذي اعتبره عبد القاهر الجرجاني سرَّ الإعجاز، حيث تُرتَّب الكلمات والعبارات وفق علاقات نحوية ودلالية تجعل المعنى أكثر قوة وتأثيرًا. وفي سورة يوسف، تتجلى روعة التركيب في أساليب متنوّعة: التقديم والتأخير، الحذف والإيجاز، التعريف والتنكير، الفصل والوصل، مما يمنح السورة انسجامًا بنائيًا ودلاليًا متكاملاً.

أولاً: التقديم والتأخير

التقديم والتأخير من أرقى مظاهر البلاغة، وهو تبادل في مواقع الكلمات بحيث تترك الكلمة مكانها في المقدمة، لتحل محلها كلمة أخرى لتؤدي غرضا ما كانت تؤديه لو أنها بقيت في مكانها المحدد الذي اقتضته قاعدة الانضباط اللغوي.[٥] وقد يُغيّر بترتيب الجملة دلالتها ويبرز عنصرًا على آخر، ومما ورد في سورة يوسف: تقديم اسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٩١]، إذ لو قيل "لقد آثرك الله علينا تالله" لفقد التركيب قوته، فجاء اسم الجلالة متقدمًا على الفعل (آثرك)، ليُبرز أن التفضيل مصدره الله لا يوسف. وهنا نجد أن التركيب يخدم الدلالة العقدية: أن الفضل كله من عند الله.

ثانيًا: الحذف والإيجاز

الحذف في القرآن من أبلغ الأساليب؛ لأنه يفتح أمام المتلقي باب التأمل ويكثف المعنى، وحذف مفعول "أرسلوا" في قوله تعالى من السورة: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ [يوسف: ١٩]، لم يقل النص "فأرسلوا واردهم ليستقي الماء"، بل حذف المفعول به ليتجه السامع مباشرة إلى المفاجأة: فأدلى دلوه. هذا الحذف يعكس سرعة الأحداث ويشد القارئ إلى اللحظة الفاصلة (العثور على يوسف). وهكذا حذف جواب الشرط في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣١]، لم يذكر جواب الشرط (أي ماذا حدث بعد أن رأينه؟)، بل أتى بالفعل المفاجئ: أكبرنه. هذا الحذف أضفى قوة درامية، وجعل السامع يشارك في إكمال المشهد تخيّلًا.

[٥]- سلطان، منير، بلاغة الكلمة والجملة والجمل، منشأة المعارف الإسكندرية، الطبعة الأولى ١٩٨٨م، ص: ١٣٨.

ثالثًا: التعريف والتنكير

للتعريف والتنكير في النص القرآني وظيفة دلالية دقيقة، والتعريف: هو إخراج الاسم من شيوع النكرة إلى خصوصية التعريف، وهو على أنحاء أشهرها: بـ (أل) وبالإضافة وبالعَلَمية... وأمّا التنكير فهو إبقاء الاسم على شيوعه، وله فوائد بلاغية منها: التهويل، التعظيم، التكثير، التقليل، التحقير." يُستخدم التعريف للتخصيص، والتنكير للتعظيم أو التهويل أو التحقير،[٦] وتنكير كلمة "ذكر" في آية: ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٤٢]، نُكِّر ليُفخم من شأنه: أي أن المنسيّ ليس أي ذكر، بل ذكر عظيم (ذكر الله). وهذا التنكير يثير إحساسًا بخطورة الموقف. كما أن تعريف كلمة "السجن" في آية ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ [يوسف: ٣٣] جاءت معرفة بـ "أل"، مع أن السياق يحتمل التنكير (رب سجن). لكن التعريف هنا يشي بأن السجن معروف محدد، وكأن يوسف قد تهيأ نفسيًا لاحتماله، فصار كالمكان المشخَّص.

رابعًا: الفصل والوصل

الفصل والوصل من أدوات النظم، وهو "الوصل عطف بعض الجمل على بعض، والفصل تركه، ....."."[٧] حيث يُفصل بين الجمل أو تُوصل بحسب الدلالة، فمثلا: الوصل لإظهار الترابط عند قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ [يوسف: ١١]، الوصل هنا بين جملتين (لا تأمنا على يوسف + إنا له لناصحون) يشي بالتلازم بين الطلب والتعليل. هذا الوصل يخدم غرض الإقناع الظاهري للأب كما جاء الفصل لإظهار الاستقلال عند قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ [يوسف: ٣٧]، فالفصل هنا أعطى قوة للخبر (نبأتكما)، وكأنه مستقل بذاته، ليعكس ثقة يوسف في علمه.

خامسًا: الأسلوب الإنشائي مقابل الخبري

فصل القدماء بين الخبر والإنشاء؛ حيث ذكروا : "ووجه الحصر أنّ الكلام إما خبر أو إنشاء، لأنّه إما أن يكون لنسبته خارج تطابقه أو لا تطابقه، أو لا يكون لها خارج. الأول الخبر، والثاني الإنشاء"[٨] والتنوع

٦- الجرجاني عبد القاهر دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود شاكر، مكتبة الخانجي – القاهرة، الطبعة: الرابعة، ١٩٩٢م، ص: .: ١٥٢.

٧- القزويني الخطبي، محمد بن عبد الرحمن، تلخيص المفتاح، مطبعة على صبح، مصر، ١٣٩٠هـ = ١٩٧١م، ص: ٦١٥.

٨- القزويني، الخطيب ، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل – بيروت، ط٣، ج:١، ص: ٥٥.

بين الخبر والإنشاء في سورة يوسف يعكس الحركة الدرامية، فالاستفهام مثلا: في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ٦٤] ليس حقيقيًا، بل إنكاري، يعكس غضب يعقوب وعدم ثقته. كما أن الأسلوب الخبري في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢] خبر يُفاجئ المتلقي بعد طول أحداث مليئة بالكراهية والمؤامرات. قوة الأسلوب الخبري هنا تكمن في أنه جاء في موضع يُتوقع فيه العقاب، فإذا بالخبر رحمة وعفو.

ومما سبق يتضح أن المستوى التركيبي في سورة يوسف يُعدّ أداة أساسية في تحقيق التأثير البلاغي والدلالي، مما يؤكد أن النظم القرآني هو سر الإعجاز كما قرر الجرجاني.

المستوى الدلالي في السورة

الدلالة هي روح النص، وهي الغاية التي تتآزر لها المستويات الأخرى (الصوتية، التركيبية، التصويرية، الحوارية)، ويمثل روح هذه الدلالة معرفة جوهر التخييل والتمثيل والإيحاء والتصوير[٩] والقرآن الكريم يتميز بأن كل لفظ فيه موضوع بدقة متناهية، بحيث يؤدي معنى مقصودًا يخدم السياق الكلي. وفي سورة يوسف يتجلّى هذا الإحكام في اختيار الألفاظ، وتدرّج الدلالات، والتحولات المعنوية التي ترافق مسار القصة من الابتلاء إلى التمكين.

الدلالة المعجمية واختيار الألفاظ:

إن لفظ "كيد" في قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨] اختيار يحمل معنى التدبير الخفيّ، وهو أدق من "مكر" أو "حيلة". الدلالة هنا تُبرز أن الخطر لم يكن مواجهة مباشرة، بل دسائس نسوية مستترة. بهذا الاختيار، ترتسم صورة دقيقة للموقف. وكذلك لفظ "غيابة" في آية ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٠]، لم يقل: "في الجب"، بل "في غيابة الجب". الغياية تعني الموضع المظلم العميق الذي لا يُرى قعره. هذه الكلمة الوحيدة تكثّف مشهد الرعب والوحدة والظلمة، وتُحدث أثرًا وجدانيًا عميقًا في السامع.

[٩]- الصغير، حسن علي، الصورة الأدبية في الشعر الأموي، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، ١٩٧٥م، ص: ٥٢.

ثانياً: الدلالة السياقية والتحول المعنوي

فمن ذلك تحول الحزن إلى الأمل في مثل قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤] حيث تتجلى دلالة الحزن العميق، لكن في السياق نفسه نجد: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣]، فهذا التحول السياقي من الأسى إلى الأمل يشي بعمق الإيمان ويترك أثرًا تربويًا بالغًا في المتلقي.

ثم التحول من الاستعلاء إلى الخضوع، وهذا في بداية القصة ترى عند قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا﴾ [يوسف: ٨]، تظهر دلالة الغيرة والحسد، ولكن في النهاية تجد في قوله عز شأنه: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٩١] تتحول الدلالة إلى خضوع واعتراف بالفضل. هذا التدرج الدلالي يبرز التأثير البلاغي للقصة ككل.

ثالثاً: الدلالة النفسية

فمن ذلك خوف يوسف من الفتنة، ففي قوله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، الدلالة نفسية بامتياز، فهو اعتراف يوسف بضعف الطبيعة البشرية لولا عصمة الله. هذا الاعتراف يترك أثرًا عميقًا في المتلقي لأنه يُقرّب شخصية النبي من الإنسان العادي، مع إبراز فضل العصمة الإلهية. كما أن انكسار الإخوة في قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩٧]، فتكرار "نا" في (استغفر لنا – ذنوبنا – كنا – خاطئين) يعكس حالة انكسار جماعي واعتراف بالذنب. الدلالة النفسية هنا تعمل عمل السهم في نفس القارئ، إذ تحوّل الحقد السابق إلى توبة واعتذار.

رابعاً: الدلالة الرمزية

يمتلك الأديب القدرة على الأخذ من الطبيعة والواقع؛ أي أخذ رموز موجودة فعلا أو تناول أشكال وتحويلها إلى رمز الذي يعرف بأنه المسافة الفاصلة بين الشيء والمرموز له؛ فيكون الشيء المادي ليس هو الرمز؛ بل المرموز له هو حقيقة الرمز".[١٠]

[١٠] – هنري برجسون، الفكر والواقع المتحرك، ترجمة أنور عبد العزيز، دار نهضة مصر– القاهرة، ١٩٧٠م ص: ١٣.

فرؤية الكواكب والشمس والقمر في آية ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] التي تمثل مجمل القصة من البداية للنهاية إنما هي رموز عن الإخوة، والشمس والقمر رمزان للأب والأم. والرمزية هنا ذات أثر بلاغي عظيم؛ فهي توحي منذ البدء بالتمكين، وتجعل القارئ يترقب تحقق الرؤيا. فكذلك القميص جاء كرمز ورد في ثلاثة مواضع: ممزق من الخلف (براءة يوسف)، وملطخ بالدم (كيد الإخوة)، ومطروح على وجه يعقوب (عودة البصر)، والقميص هنا رمز يتكرر في السورة، يتحوّل معناه دلاليًا من التهمة إلى البراءة، ومن الحزن إلى الفرح. هذا التحول الرمزي يزيد من قوة التأثير البلاغي.

خامساً: الدلالة التربوية والاجتماعية

إن سورة يوسف ليست قصة تاريخية فحسب، بل تحمل دلالات تربوية واجتماعية، ومن ذلك دلالة الصبر، قال تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨]، فالصبر الجميل هو صبر بلا شكوى، وهذه الدلالة التربوية تتجاوز الزمان والمكان، فتخاطب كل متلقٍ يمر بابتلاء. ثم دلالة العفو عند قوله تبارك وتعالى: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢]، فهذه الدلالة الاجتماعية العظمى تمثل ذروة القصة: التسامح بدل الانتقام. فالأثر البلاغي هنا بالغ لأنه يُغيّر مجرى الأحداث ويقلب العداوة إلى مودة[١١].

ويتضح مما سبق أن الألفاظ والتراكيب فس سورة يوسف لم تُستعمل اعتباطًا، بل جاءت وفق نظام محكم يؤدي غايات تحقّق الإعجاز القرآني في توجيه الفكر والوجدان.

المستوى التصويري في السورة

التصوير في القرآن ليس مجرد تزيين بلاغي، بل هو أداة لإحياء المعنى وتجسيد الفكرة في صورة حسية نابضة، تجعل المتلقي يعيش الحدث وكأنه يراه[١٢]. وسورة يوسف من أغنى سور القرآن الكريم بالتصوير الفني، حيث تتوالى فيها المشاهد وكأنها لوحات متحركة، مشهد المؤامرة، ومشهد الجب، ومشهد النسوة، زمشهد السجن، ومشهد التعرف والعفو.

[١١]- ابن القيم، شمس الدين: مدارج السالكين. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٦م، ج١، ص: ١١٢–١١٨.

[١٢]- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار المعارف مصر، ١٩٥٩م، بدون الطبعة، ص: ٦٣

أولاً: التصوير الحسي

إن مشهد الذئب والقميص من أهم المشاهد التصوير في هذه الصورة، قال تعالى: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨]، والتصوير هنا في غاية البلاغة، إذ جاءوا بالقميص لا بالخبر، وكأن القميص هو الذي يتكلم، وكلمة "بدم كذب" أوجزت المشهد كله، فهو دم مصطنع، ثم هي أيضا حيلة مكشوفة. فهذا المشهد يجعل القارئ يشارك يعقوب في كشف الكذب.

أما مشهد الجب؛ فقد قال الله تعالى عنه: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٥]، حيث لا يكتفي النص بذكر إلقائه في الجب، بل يصفه بـ "غيابة الجب" أي أعمق نقطة مظلمة. فهذا التصوير ينقل المتلقي مباشرة إلى جوّ الكآبة والرعب، وكأنه يرى يوسف صغيرًا يختفي في الظلام.

ثانياً: التصوير الحركي

ومشهد النسوة من أعظم هذه التصويرات، يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣١]، فالحركة هنا درامية مفاجئة: رؤية يوسف ⟶ انبهار داخلي (أكبرنه) ⟶ فعل جسدي لا إرادي (قطعن أيديهن) أيضا. وهذا التصوير الحركي يخلق مشهدًا بصريًا قويًا يبقى في ذهن المتلقي.

أما مشهد إخوة يوسف أمام العزيز في قوله تعالى:﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠]، فتجد الفعل "خرّوا" يعبر عن سقوط مفاجئ وسريع، يعكس انكسار القلوب قبل الأجساد. الصورة الحركية هنا تجسد خضوعهم واعترافهم بالخطأ.

ثالثاً: التصوير الحواري

الحوار في السورة ليس مجرد تبادل كلام، بل يحمل صورًا فنية حيّة، فحوار يوسف في السجن مثلا في قوله تعالى: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، فالصورة بليغة جدا؛ (آلهة متفرقة متصارعة في مقابل إله واحد قهار) فهذا الحوار يصور العقيدة كلوحة عقلية ووجدانية مؤثرة.

وكذلك حوار الإخوة مع يعقوب عليه السلام؛ إذ قال الله تعالى في ذلك: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف: ١١]، فالحوار يصور حالة من التملق والتمويه، بحيث يظهر في أسلوب الاستفهام، وكأن المشهد ينقل للمستمع نغمة الصوت المرتبكة ونوايا الخيانة المستترة.

رابعاً: التصوير الرمزي

تجد في رؤيا يوسف عليه السلام عند قوله تعالى: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا... رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] الصورة الرمزية ذات أبعاد كونية؛ كواكب وشمس وقمر تتحول إلى رموز للأهل، فهذا التصوير الرمزي يمنح القصة طابعًا شموليًا يربط بين عالم السماء وعالم الأرض.

والقميص أيضا كرمز؛ فالقميص الممزق توحي بالبراءة، والقميص الملوث بالدم توحي بالكذب، والقميص المبعوث من مصر إلى يعقوب عليه السلام توحي بالشفاء والفرح.

فالحاصل أن تكرار الرمز وتحوّله من حال إلى حال يجعل القميص صورة رمزية لرحلة يوسف عليه السلام كلها من الابتلاء إلى النصر.

خامساً: التصوير النفسي

إن خوف إخوة يوسف عليه السلام في قوله تعالى :﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٩١]، يصور النفسية حيث تجسد حالة الانكسار الداخلي والاعتراف بالذنب، والتوكيد بالقسم "تالله" يصور الاضطراب النفسي وشدة الصدمة.

وكذلك الحال في حزن يعقوب عليه السلام قال تعالى: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤] فصورة بصرية مؤثرة، فبياض العين يعبر عن صورة نفسية عميقة من الكظم، فهذه الصورة المركبة تُحدث تأثيرًا وجدانيًا قويًا في السامع.

فخلاصة القول أن المستوى التصويري في سورة يوسف عليه السلام يقوم على التصوير الحسي الذي يجسد المشهد بالألوان والظلال، والتصوير الحركي الذي يحوّل الأحداث إلى مشاهد متحركة، والتصوير الحواري الذي يُظهر الانفعالات والنوايا، والتصوير الرمزي الذي يربط الجزئي بالكلي والمعنوي بالمادي، بينما التصوير النفسي الذي يترجم المشاعر إلى صور محسوسة.

وبذلك، فإن التصوير الفني في السورة يُعتبر من أعظم وسائل التأثير البلاغي والدلالي، لأنه يحوّل القصة من مجرد سرد إلى دراما حية تؤثر في القلب والعقل معًا.

المستوى الحواري في السورة

الحوار في القرآن الكريم وسيلة تربوية وبلاغية عظمى، فهو لا ينقل الأحداث فحسب، بل يكشف عن أعماق النفوس، ويجسّد الصراع بين الحق والباطل، ويقرب المعاني للمتلقي بصورة حيّة. وفي سورة يوسف، يُعَدّ الحوار العنصر المحرّك للأحداث، إذ تبدأ القصة برؤيا يحكيها يوسف لأبيه، وتتواصل بسلسلة من الحوارات بين يوسف وإخوته، وبين يوسف وامرأة العزيز، وبين يوسف والسجناء، وبين يوسف وإخوته بعد التمكين.

أولاً: الحوار بين يوسف عليه السلام وأبيه

وحوار الرؤيا في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] من أعظم هذه الحوارات، فهو قصير لكنه محوري يظهر فيه براءة يوسف عليه السلام ، ويرمز للمستقبل. ومن ردّ يعقوب عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾ [يوسف: ٥] يبرز البعد التربوي (الحذر من الغيرة)، ثم البعد الدلالي من الإرهاص بالتمكين القادم.

ثانياً: الحوار بين يوسف عليه السلام وإخوته

وحوار المؤامرة في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا... اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ [يوسف: ٨-٩] يكشف عن الغيرة والحسد، ويصوّر الصراع النفسي الداخلي، فبالتدرج من القتل إلى الطرح يعكس شدّة الغيظ ثم محاولة التخفيف.

ثم حوار الاعتراف في قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١] تجد أنه يظهر نغمة أخرى تمامًا؛ التوبة والانكسار. وهذا تحول حواري من العدوان إلى الخضوع ويجسّد قوة التأثير البلاغي للسورة.

ثالثاً: الحوار بين يوسف وامرأة العزيز

الحوار في لحظة المراودة عند قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣] جواب من يوسف عليه السلام وقصير قوي، يبدأ بالاعتصام بالله، ثم بذكر إحسان سيده، مما يقطع طريق الفتنة. فقوة الحوار تكمن في الإيجاز المؤثر.

أما الحوار أمام النسوة في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَغْفِرْنَ اللَّهَ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٩] حيث يتدخل العزيز موجهًا الخطاب لامرأته حوار يبرز الحكمة السياسية والاجتماعية، ويكشف عن التوازن بين العاطفة والمصلحة.

رابعاً: الحوار في السجن

إن حوار يوسف عليه السلام مع صاحبيه في السجن عند قوله تعالى: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] حوار يبرز الجانب الدعوي، فيه جدل عقلي (مقارنة بين الآلهة المتفرقة والإله الواحد)، فالصورة البلاغية تجسد الحجة في إطار حواري حيّ. وكذلك حواره عليه السلام مع الملك في قوله تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥] يبرز الثقة بالنفس والقدرة على تحمل المسؤولية. فاختصار العبارة يشي ببلاغة يوسف عليه السلام وحكمته.

خامساً: الحوار بين يوسف وإخوته بعد التمكين

إن لحظة المواجهة عي قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩] فيه حوار صريح يواجه الماضي.، وكلمة جاهلون تخفف وقع الاتهام، وتفتح باب التوبة. وأيضا لحظة العفو حيث قال تعالى: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢] فالحوار كان بجملة قصيرة موجزة قلبت الموقف كل: من خوف إلى أمان، ومن عداوة إلى عفو. وبلاغتها هنا في الإيجاز، ودلالتها في الرحمة أيضا.

الخاتمة

ناقشت هذه المقالة المظاهر البلاغية في سورة يوسف عليه السلام من خلال مستوياتها المتعددة: الصوتي، التركيبي، الدلالي، التصويري، والحواري، ويمكن تلخيص أهم النتائج فيما يلي:

- أن في سورة يوسف عليه السلام انسجام إيقاعي بارز في التكرار والتنغيم وتناسب الحروف، مثل تكرار الألفاظ الموحية بالحزن والرجاء، مما أكسب القصة تأثيرًا وجدانيًا قويًا في نفس المتلقي.
- تميزت تراكيب السورة بالدقة في اختيار الأسلوب المناسب للمقام، فتنوّعت بين الخبر والإنشاء، والتقديم والتأخير، والإيجاز والإطناب، بما يخدم تصاعد الأحداث الدرامية.
- الكلمات والعبارات جاءت مشحونة بالمعاني العميقة، مثل اختيار لفظ كَيْد في مواضع المراودة والمكيدة، ولفظ الملك في مقام التمكين، مما أظهر دقة توظيف الدلالة لخدمة الرسالة.
- اعتمدت السورة على التصوير الحسي والتخيلي لإبراز المعاني في صور مرئية، مثل تصوير الذئب المفترى عليه، أو مشهد قميص يوسف، مما جعل السرد القرآني يتجاوز الإخبار إلى المشاهدة.
- الحوار شكّل العمود الفقري للسورة، فنقل الانفعالات الإنسانية (الحسد، التوبة، العفو)، وأدى وظائف تربوية ودعوية وسياسية وأخلاقية، مما عزز الجانب التعليمي والبلاغي معًا.
- إن وحدة المستويات البلاغية وتكاملها جعلت من قصة يوسف نموذجًا فنيًا معجزًا يجمع بين الجمال الفني والرسالة العقدية والتربوية.

ومن هنا يدرك أن دراسة البلاغة القرآنية ليست مجرد تأمل في جمال الأسلوب، بل هي مدخل لفهم الرسالة التربوية والإنسانية في القرآن، وأن سورة يوسف عليه السلام على وجه الخصوص تمثل أنموذجًا بليغًا يجمع بين عمق المعنى وروعة المبنى.

المصادر والمراجع

الزمخشري، محمود بن عمر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٧هـ. (انظر: ج٢، ص ٣١٠–٣١٨).

الرازي، فخر الدين: مفاتيح الغيب. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ. (ج١٨، ص ١١٥–١٣٠).

ابن عاشور، محمد الطاهر: التحرير والتنوير. تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م. (ج١٢، ص ٢٠–٥٥).

البقاعي، إبراهيم: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، ١٩٨٤م. (ج١٣، ص ٤٠–٦٥).

السيوطي، جلال الدين: الإتقان في علوم القرآن. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤م. (ج٢، ص ١٤٥–١٥٠).

ابن القيم، شمس الدين: مدارج السالكين. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٦م. (ج١، ص ١١٢–١١٨).

القرضاوي، يوسف: مدخل لدراسة القرآن الكريم. القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٩٩م. (ص ٢٥٠–٢٦٥).

الخطابي، حمد بن محمد: بيان إعجاز القرآن. تحقيق: أحمد صقر. القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٦م. (ص ٧٥–٨٥).

سعيد، صلاح عبد الفتاح: التفسير البلاغي للقرآن الكريم. القاهرة: دار السلام، ٢٠٠٢م. (ص ٢١٠–٢٣٠).

عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز. تحقيق: محمود شاكر. القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٩٢م. (ص ٩٥–١٢٠).